مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (26) العدد (1)2004
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Science Series Vol (26) No (1) 2004

القصيبي بين الشعرية والرواية

الدكتور فاخر صالح ميا*
غيثاء حبيب داؤد**

(قبل للنشر في 2004/3/29)

□ الملخّص □

يسعى البحث إلى محاولة إجمال خصائص أعمال القصيبي الروائية، وأكثر هذه الخصائص بروزا هي استخدامه للغة الشعرية في أعماله الروائية، على الرغم من الاختلاف القائم بين اللغة الشعرية واللغة النثرية.

ولغة القصيبي الشعرية امتازت بصفات أهمها: شعرية الجملة، والتكثيف اللغوي عبر الخيال والصورة النثرية

*الأستاذ المساعد في كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية
* طالبة دراسات عليا في قسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين – اللاذقية – سورية

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (26) العدد (1)2004
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Science Series Vol (26) No (1) 2004

Al - Kussaibi between Poetry and Prose

Dr. Fakher Saleh Mayya*
Ghaytha a Dawood **

(Accepted 29/3/2004)

□ ABSTRACT □

This study tries to summarize the advantages of the prose works of AL- Kussaibi. The most important feature that appears in his works is Poetical language in spite of the difference between the Poetical language and Prosaic language .

His Poetical language has the following important points:

1- Poetic sentences
2- Use of words that have many meanings
3- The Pros figures of speech.

***Associate Prof, Department Of Arabic, Faculty Of Arts And Humanities, Tishreen University - Lattakia – Syria**
****M.A Student, Of Arabic, Faculty Of Arts And Humanities, Tishreen University-Lattakia – Syria**

مهما كثر الكلام على الفن، وتعددت الآراء في تفسير ماهيته ، فإنه يسير على دعامتين هما: الفائدة والمتعة .

وفي ضوء هذا الفهم، فإن جوهر الشعرية يتألق في هذه المهمة أي حس الدعابة، بمعنى المفاجأة.

فالمفاجأة: تحطيم المتوقع، يصح أن تكون من تعاريف الشعرية، والفكاهة إن لم تكن مفاجئة تتخذ مسمى آخر، وهي تعد مفتاحا من المفاتيح الأساسية في الولوج إلى القراءة الجمالية، وإدراك سر من أسرار الإبداع الفني (المسافة الجمالية).

ولما كانت الشعرية، اليوم هي غاية هذه القراءة الجمالية، فإن نقاط الالتقاء والتوافق بين الشعرية، والفكاهة، تعد ملمحا من ملامح التطور الفني، في مسيرة النثر، وتألقه أو (حضوره المتألق).

أن العلاقة بين الشعري والفكاهي – التي أشار إليها باختين – تعد علاقة دائمة الحضور في أعمال القصيبي الروائية.

وفي النظر إلى ماهية كل من الشعرية والفكاهة، وإلى مهمة كل منهما، ندرك أنهما من لبابة الفن المعاصر.

ويمكن تحقيق هذا الجانب من العمل الفني من خلال الاعتماد على أساليب فنية جمالية متعددة، حيث البناء الفني الجمالي المميز، والمنسجم مع طبيعة الأفكار والمواضيع المتناولة في كل عمل، فمن حوار، ونقاش بين شخصيتين على مدار الرواية في رواية(العصفورية)، إلى فصول مقسمة تبعا للأعوام، والأحداث في رواية (شقة الحرية)، إلى فصول مقسمة تبعا للشخصيات في الرواية (7).

إن الاعتماد على السخرية، في فضح بعض السلبيات، في المجتمع العربي عبر حس الدعابة، الذي يمتلكه الكاتب، إذ يسعى القصيبي من خلاله إلى بيان السلبيات، وتوضيحها للوصول إلى مسبباتها، وبواعثها، والتنبيه المتلقي إلى أخطارها فاللغة الشعرية تنساب في ثنايا رواياته. وهنا، لا بد أن كتابة الشعر لفترة طويلة من الزمن، ثم الانتقال إلى الرواية قد ترك أثره الواضح في روايات القصيبي.

فاعتمد في (شقة الحرية) ، (7) ، على تقسيم أخذ شكل فصول ، ارتكز كل منها على بيت شعر للمتنبي :"كل بيت شعري ، يرد في موقع استراتيجي دائما ، وهو البدايات ، ليعين بطريقة الإستباق، الاتجاه الدلالي العام لما بعده ، والتعيين هنا لايعني " التحديد " وإنّما توجيه القارئ وقراءته إلى أفق معيّن. "/1/.

فما يكاد القارئ ينتهي من أيّ فصل، إلا بدعوة إلى الانتعاش الشعوري والتأمل، وكأن الرواية تحولت إلى قصيدة، وتحولت فصولها إلى مقاطع شعرية. والشعرية تختلف عن القصيدة، ولا تعارضها، فإذا كانت القصيدة من القصد، فإن كل نص هو قصيدة.

أما الشعرية فهي استيعاب خيالي، وأسلوب لغوي، وعلاقات دلالية تهب النصوص خصوصية فنية في التعاطي والفهم.

وقد فهم بعض الباحثين أن اللغة الشعرية: هي هذه الاستخدامات للأبيات الشعرية في مطالع الفصول. في حين أن اللغة الشعرية أمر آخر هو الاعتماد على التكثيف، والاستعارة، والتجربة الداخلية، والفجوة في اللغة

بيد أن استخدام الشعر، وخاصة شعر المتنبي، يدفع الباحث إلى قراءة الخلفية الثقافية التي تقبع في دخيلة الكاتب، وتملكه أدوات فنية متمازجة بامتياز.

وفي محاولة البحث الخوض في أعمال القصيبي الروائية، يعتمد على عناوين أساسية:

أ- شعرية الجملة:

يوظف القصيبي في رواياته عبارات مترابطة، تقوم بين ألفاظها علاقات لغوية متينة ومختلفة تحمل المفاجأة، أو العدول الدلالي، تشكل من ألفاظ نصوصه عبارات شعرية: تعتمد التكثيف والرمز والخيال، جاعلا من التناقض بين اللغة النثرية، واللغة الشعرية مصدرا للجمال في التعبير، وتحريضا للمتلقي للمشاركة في العملية الإبداعية. إذ يفسح المجال أمامه لدلالات غنية متنوعة. لا يقدم الأفكار جاهزة، واضحة تمام الوضوح، إنما يقدمها بأسلوب يتخلله الرمز، وتعدد الدلالات بما يتيح للمتلقي إضفاء شيء من ثقافته، وروحه على النص، ما يجعل النص مفتوحا على فضاءات متعددة، وتحليلات متنوعة بتنوع المتلقين.

إن إدخال اللغة الشعرية ضمن اللغة الروائية، منح الرواية أبعادا جديدة، وأظهرها بأسلوب مبتكر، فاللغة الروائية تعتمد الوصف ، والإطالة ، فقد يصف الكاتب حادثة بسيطة – استغرق حدوثها زمنا قصيرا– في صفحات عدة 0

والأسلوب الروائي يشفع للكاتب، لأن المجال في الرواية يتسع لذلك ويستوعبه0

أما اللغة الشعرية، فإنها تكثيف: فقد تغني الجملة، أو العبارة فيها عن كثير من الصفحات النثرية.

فمثلا تصوير حال (عبد الكريم): وهو أحد شخصيات(شقة الحرية) عند قدومه باكرا إلى (البوفيه) لانتظار (فريدة) الفتاة التي طالما حلم بلقائها: "جاءت القهوة،وبدأ عبد الكريم يرتشفها ببطء. ويرقب كيف يفتح البوفيه عينيه، ويتثاءب، ويتمطى، ويبدأ يومه بهدوء يثير الأعصاب"\2\ يتلمس المتلقي من السطرين السابقين قدوم(عبد الكريم) المبكر جدا إلى (البوفيه)، وحالة التوتر التي يعانيها،وإحساسه بأن الوقت يمر ببطء شديد، لأنه في حالة انتظار. حتى(البوفيه) يزعجه، فهو لايحس به،وبما يعتريه من مشاعر وترقب،ويبدأ يومه بهدوء يثير الأعصاب، ويوتر(عبدالكريم). وبعد الانتظار تأتي(فريدة): "العاشرة وخمس دقائق ثم يقف الزمان. ويتجمد المكان. وتصبح الأشياء ساحرة مسحورة. وتنفجر الشمس. وتفيض الأنهار. ويأخذ العقل إجازة. وتدخل فريدة وبقربها نشأت يتحدثان ويضحكان، ويتجهان إلى طاولته."\3 \

لا تتبع الشعرية في وصف هذه الضحكة، من الصفات التي أصبغها الكاتب عليها، مثل: رقيقة، شهية، حلوة، بل من إتمام الجملة اللغوية التي تحدث خلخلة في التوقع، فهي مثلا أرق من المتوقع ومن الظن .... ويزداد التوتر بوصفها أحلى مما يستحق ."/4/ فيحمل القارئ على تخيل جديد ومنولوج يسأل: ما الذي يستحقه هذا الرجل ؟ أو لا يستحقه ؟ وهذا الكلام يعد ضمنيا سياق العبارة الظاهرة.

إضافة إلى انتقاء الكاتب لألفاظ مترابطة، فمحاولة التغيير والتبديل للألفاظ بألفاظ مرادفة لها و، لا يترك الأثر ذاته، فتغيير أي مفردة من المفردات على الرغم من بساطتها يخلخل بناء الجملة، وبالتالي بناء العبارة. فالألفاظ تترابط في جمل الكاتب: تؤدي كل لفظة دورها عندما تجتمع مع الألفاظ الأخرى، لكنها عندما تخرج خارج سياقها ليس من الضروري أن تعطي النتيجة ذاتها.

ويلاحظ أن أسلوب القصيبي يعتمد على ألفاظ بسيطة، ترتبط فيما بينها بعلاقات تجعل منها في النهاية جملا شعرية :"و أحس عبد الكريم أنه ينتقل على بساط الريح إلى دنيا الأساطير. فريدة بقربه، ونسمات الليل تعبث بشعرها كصبي مشاغب، والغروب يتلصص من بعيد في جلباب بنفسجي. "\5\

لقد اعتمد الكاتب في وصف علاقة حب بين علاقة (عبد الكريم) و(فريدة) على جمل شعرية، خاصة عند الحديث عن حالة، أو مشاعر أي منهما تجاه الآخر، فيصف حالة (عبد الكريم):

" تتطاير الأيام كالبخار قبل أن يتمكن من ملامستها. وفي كل يوم تبدو فريدة أجمل، وأشهى، وأقرب ."\6\

إن الجمل في العبارات السابقة قصيرة: غالبا ما تتألف من كلمة واحدة: أجمل، أشهى، أقرب، يتثاءب، يتمطى ... أو من كلمتين: يقف الزمان، يتجمد المكان، تنفجر الشمس، تفيض الأنهار وهذا ما يؤكد على أن اللغة الشعرية لغة تكثيفية: فالفظة، أو الجملة تغنيان عن كثير من الشرح، والإسهاب في الأفكار والأحداث.

فـ " التشخيص الشعري بمعناه الصارم (داخل الصورة – الاستعارة) يجري كل الفعل (ديناميكية الكلمة– الصورة) ما بين الكلمة والموضوع (في جميع مظاهرهما) فالكلمة تنساب داخل الغنى الذي لا ينفذ ، والتعدد الشكلي المتناقص للموضوع ذاته ، وداخل طبيعته التي ما تزال " بكرا " وغير مكتشفة ."/7/

فاللغة الشعرية – كما مر سابقا – ليست خلق علاقات مشابهة وانسجام بين أشياء متشابهة، إنما هي ربط بين أشياء متشابهة، إنما هي ربط بين أشياء قد تبدو للوهلة الأولى شديدة التناقض، ربطا يدعو إلى عوالم غير مكتشفة للبحث فيها والخوض في غمارها.

ب– التكثيف اللغوي عبر الخيال:

يعتمد القصيبي في أعماله الروائية على التكثيف ، والتلميح خاصة في محاولته نقد سلبيات المجتمع العربي. وهنا، يحاول عبر هذا الأ سلوب إشراك الملتقي في عملية الإبداع ، لأنه يترك المجال مفتوحا أمامه لتحليل ما يقرأ ، والوصول إلى المعنى المراد :"كنا نريد أن نتجول في شوارع المدن العربية دون أن نحمل شجرة العائلة على صدورنا وعقد الزواج في جيوبنا، وبطاقة أحد المتنفذين على جباهنا" \8\

إنه نقد للقيم البالية، نقد للمعوقات والمفاهيم الصدئة والمعشعشة في عقول العرب، والمهيمنة عليهم، مما يخلق حالات من التشتت فالتجزئة. إنه انتقال من تجزئة الجزء إلى تجزئة الكل .

ويظهر القصيبي في(روايته العصفورية) أيضا ظاهرة الرشوة المتفشية لدى بعض الموظفين:

" الماصة يا حكيم، هي طاولة المكتب ولا أدري والله ! كيف اشتقت. ربما من الامتصاص. ذلك أن الموظفين الذين يجلسون وراء الماصات كثيرا ما يمتصون من جيوب مراعيهم ..."\9\

لكن الكاتب بدل أيفصل في ظاهرة الرشوة، ويشرح تفاصيلها، والأساليب المتبعة فيها: يصورها بأسلوب مكثف، فيطلق اسم الماصة على طاولة المكتب المستغلة من قبل الموظفين، أو بعضهم لامتصاص ما تحتويه جيوب المراجعين.

وهنا، تأخذ ملية الامتصاص، منحى آخرغير منحاها المعروف، فتتجه من عملية الطعام والغذاء وإلى امتصاص الأموال ،وكأنه أصبح مكان الغذاء ،وأحيانا أهم من الغذاء عند بعضهم.

لا يكتفي الكاتب بالمظاهر السابقة، بل يتحدث عن الحياة الأكاديمية، والأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الحياة: إنهم يعيشون في عالم آخر ، أفكارهم مختلفة عن أفكار الآخرين:

" والحياة الأكاديمية يا نطاسي، أروع من رائعة. المخلوقات الأكاديمية مخلوقات من نوع متميز. يتحدثون فلا يفهمهم أحد، لأن أفكارهم فوق مستوى الدهماء والرعاع والسوقة ."\10\

بالطبع ليس المقصود العبارة السابقة المعنى المباشر، إنما المقصود: أن بعض الأكاديميين يأخذهم الغرور بأنفسهم، وبشهاداتهم، فيترفعون عن بقية الناس، وكأن المعوّل في تقييم الناس على الشهادات، فالبرج العاجي الذي يعيشون فيه ،يجعلهم ينظرون إلى الآخرين نظرة دونية، يتكلمون فلا يفهمهم أحد، ولا يتوصل إلى مقاصدهم أو غاياتهم أي شخص، وكأنهم مخلوقات غير عادية .

ولا يتوقف الكاتب في استخدامه التكثيف على نقض بعض سلبيات المجتمع العربي، إنما يستخدمه أيضا في الحديث عن العلاقات الإنسانية، خاصة علاقة الحب :" اللمسات التي نثرتها هنا وهناك، الدولاب الجديد ،رفوف الكتب، السجادة الصغيرة، المزهرية، حولت غرفته من زنزانة كبيرة إلى منتزه صغير ."\11\

كيف يتغير الكون في نظر المحب ؟! كيف يثير تبدل بعض الأمور الصغيرة غير الواضحة، أو الملموسة من قبل كل هذا التغير ؟! فتصبح ذات أهمية كبرى، وحاجة ماسة، بعد أن كانت مهملة لا تعني شيئا. فدخول (ريري) إلى (شقة الحرية)عن طريق علاقتها بـ (عبد الكريم) قد غير ليس في أسلوب حياته فقط، بل تعدى ذلك، لتغيير أسلوب حياة جميع سكان الشقة. إن التغيرات تبدو بسيطة للوهلة الأولى، ولم تثر انتباه أحد من قبل. إنها لمسات أنثوية حولت غرفة (عبد الكريم) ، من زنزانة رغم اتساع مساحتها إلى منتزه، بثت فيها نوعا من الحيوية والتغيير، أعطته شعورا بالحرية والتجدد . وفي الحديث عن التحول في غرفته تكمن اللغة الشعرية، ويكمن التكثيف: فالغرفة الواسعة كان يحسها زنزانة ضيقة، لكنها بفضل التغيير والتبديل فيها، أصبحت منتزها صغيرا، إلا أنه يبث حب الحياة والانطلاق فيها .

ويبدو أسلوب التكثيف واضحا، في وصف علاقة كل شخصية من شخصيات (شقة الحرية)، مع الجنس الآخر: " هبطت السماعة: ووضع فؤاد أصابعه في أذنيه ليحاول أن يسكت ضجيج قلبه الذي قرر أن يصرخ بملئ عروقه" \12\

وفي هذا المثال تتضح الشعرية عبر خلخلة المألوف والمتوقع، ففؤاد يضع أصابعه في أذنيه، فالمتوقع أن يكون ذلك للابتعاد عن سماع صوت قوي أو ضجيج ما، أما هنا لـ" يسكت ضجيج قلبه" وهذه الجملة إبداعية شعرية: لو حاولنا تفكيكها لحصلنا على كلمات عادية بسيطة خارج سياقها، لكنها بترابطها أعطت لغة خاصة لها دلالات غير مباشرة .

ج- الصورة النثرية:

إن للصورة الروائية خصوصيتها النابعة من أسلوب تعامل الكاتب الروائي مع الواقع:"لان الكاتب الروائي لا يتعامل مع الواقع كما يتعامل معه الرسام أو النحات من خلال المادة الموجودة في الطبيعة كاللون والحجر لكنه يحوله إلى رموز لغوية ونحن لا نمضي عندما نقرا رواية ما ،من القراءة إلى الحياة الا عبر عملية فك الرموز اللغوية ذاتها ."\13\

فالتلقي يشكل أهمية كبرى في عملية الخلق الأولي. وهي أكثر من أن تكون فك رمز، فالعلاقة قبل العمل، وفي أثنائه كما هي بعد إنجازه بغية إعادة خلقه من جديد: " غادر القصر العيني وأضواء الصباح تتسلل من بعيد، والقاهرة على وشك أن تبدأ يوما جديدا ."\14\

فالزمن لا يتوقف عند الأشخاص والساعات تمر، وتتوالى، على الرغم من حالة الترقب، التي يمر بها (عبد الكريم)، أمام الأزمة الصحية التي تعاني منها (ريري).

يهتم القصيبي في رواياته بجزئيات الصور، فتتجسد أمام ناظري المتلقي، وكأنها مشاهد سينمائية أو تلفزيونية مليئة بالحركة والحيوية:" ثم وقفت عيناها عنده، فترة، لا يدري فؤاد كم طالت اعتنقت عيونهما، واتسعت الابتسامة، وانحنت انحناءة صغير له، لا للجمهور وجاء الصوت من مكان سحيق، من أعماق الزمان"\15\

وكتابات القصيبي الروائية تؤكد على معاناة الإنسان وما يفرزه الواقع من تناقضات صارخة تعيق الإنسانية في الوصول إلى مبتغاها، والشعرية هنا تتحدد في حساسية الكاتب في التقاطه لمواقف دقيقة شفافة لا تخطر إلا لمن يمتلك روحا شاعرية وحدسا خلاقا، من مثل :" لا شيء ينشط الموظف مثل عضوية اللجان. ولهذا يموت الموظفون بعد التقاعد، لا يموتون لانقطاعهم عن العمل بل لانقطاعهم عن عضوية اللجان، إذا أردت أن تقتل موظفا فلا تضعه في لجنة."\16\

إنها الإجراءات الروتينية، والمناقشات، والمداولات غير المفيدة ،المتعلقة بظواهر الأمور ،إذ لا تعير اهتماما لبواطنها ،أي :لا تقوم على أساس تفكير علمي في تحليل الأمور،ومحاولة استقصاء الحقائق ،فأي موضع مهما صغرت أهميته تشكل له لجنة لمداولة شؤونه، ومعالجة سلبياته .

وهذا الموضوع ليس وقفا على بعض الوظائف، إنما تجاوزتها إلى الجامعات:"اعلم ،يا طبيب،إن هناك مالا يقل عن ألف مجلس في الجامعة المتقدمة وأضعاف ذلك العدد في الجامعات المختلفة، وأظرف مافي هذه المجالس أنها لا تفعل شيئا سوى إعادة اختراع العجلة، تكرار نفس القرارات دائما."\17\

إنها ظاهرة مخيفة، فهي تعني الدوران في المكان، دون محاولة الأمور الشكلية التي لاتضر ولا تنفع، وتخطيها في محاولة للنهوض بالمجتمع، ومواكبة التطور. لقد هيأ الكاتب قارئه للإنكار عبر الموازنة بين المتقابلات، لكن الطريقة الجمالية من خلال إثارة المقارنة تخلق حالة من الخلخلة البنائية للسياق وهذه الخلخلة هي ماجاء البحث على تسميتها بالشعرية النثرية أو اللغة الشعرية.

الحواشي:

1. مجلة العربي ع 492 – نوفمبر: د. معجب الزهراني: " شقة الحرية " حوارية النصوص والأشكال الخطابية، ص :123
2. القصيبي، غازي عبد الرحمن: (شقة الحرية)،رياض الريس للكتب والنشر–لندن، ط3–1995.
3. المصدرالسابق، ص: 93.
4. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5. المصدر السابق، 138.
6. المصر السابق، ص139.
7. باختين، ميخائيل: (الخطاب الروائي) ،تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة– باريس، ط1 – 1987 .
8. القصيبي، غازي عبد الرحمن: (العصفورية)، دار الساقي – لبنان –الحمراء ،ط2– 1996، ص53.
9. المصدر السابق، ص115.
10. (العصفورية)، ص: 118.
11. (شقة الحرية)، ص278.
12. المصدر السابق، ص298.
13. المصدر السابق ص37.
14. المصدر السابق ،ص353.
15. المصدر السابق،ص 456.
16. العصفورية ،ص19
17. المصدر السابق ،ص22

المراجع:

.....

1– القصيبي، غازي عبد الرحمن: (شقة الحرية)، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ط3 –1995

2– القصيبي، غازي عبد الرحمن: (العصفورية)، دار الساقي، الحمراء، بيروت، لبنان ط2– 1996

3–باختين، ميخائيل: الخطاب الروائي، تر :محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، باريس ط1– 1987

4–جان إيف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين، تر: د.قاسم المقداد، وزارة الثقافة،دمشق1993

5– جاكوب، كورك، اللغة في الأدب الحديث، تر: (ليون يوسف وعزيز عمانوئيل)، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد 1989

6– د. ب غالفر .أدب أمريكا اللاتينية الحديث، تر:(محمد جعفرداؤد)، دار الحرية للطباعة، بغداد ط1–1977

7– كولن ولسن، فن الرواية، تر:(محمد درويش)، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد 1987

8– ميا، فاخر، مذكرات نقدية، دار الينابيع للنشر والتوزيع، دمشق ط1–1997

9– مجلة العربي، وزارةالإعلام، الكويت العددان -426مايو 1994 و 492 نوفمبر1999